الفصل الرابع

عِلمُ الْكَلاَم عِنْد الغَزالى

هَدَم الغزاليُّ نظامَ الفلاسفة الزَّنادقة الآخرين، وأقام نظامَ علم الكلام السُّنِّيِّ، وظَلَّت مؤلَّفاتُه فى هذا الموضوع مُعَبِّرَةً كاملةً عن العقيدة الإسلامية، ومؤلَّفه الرئيسُ هو كتاب "إحياءُ علوم الدين"، ويشتمل هذا الكتاب على معارفَ مُفَصَّلةٍ عما يأمر به الإسلام، أو يوصى به، من الشعائر وأعمال البِرِّ التى لا نَرَى شَغْلَ بالنا بها، وإنما نرى أن نَقْصِرَ عمَلنا على الحديث والتعبير عن الأفكار والمناحى الفلسفية التى أَثَّرَتْ فى إقامة علم الكلام هذا.

وأَمْتَعُ قضيةٍ بين قضايا هذا النظام ما كان موضوعُه تعريفَ العلمِ الحقيقىِّ وشرعيةَ البحثِ النظرىّ فى أمر الاعتقاد، وبالعلم يَبْدَأُ إمامُنا، وسنحلله ونُجْمِلهُ، ثم نَعْرِض الشكلَ الذى اتخذته اللاهوتيةُ بين يديه، وسوف نُكْمِلُ الفصلَ ببعض الأمثلة مُبَيِّنين كيف فَسَّرَ بحِسٍّ فلسفىٍّ، بعض التعابير الشرعية التى هى على شىء من الجفاء.

وأما المناحى العامةُ التى يَجْهَرُ بها هذا المذهبُ، وأما الاثنتان منها اللتان هما أهمُّ ما يَجْدُر ذكرُه، فما يُساوِرُه كلَّه من شعورٍ نصرانىٍّ تقريبًا، وهو ما نلاحِظُ دلائلَ كثيرةً عليه، وما يتَّخِذُ من خِطّة لتخليصهِ من دقائقِ البَرْهنة وثِقَل الأدلة، ويخاطِب الإمامُ القلبَ أكثرَ من مخاطبته العقلَ، ويخاطبُ الإمامُ الشعبَ أكثرَ من مخاطبته العلماءَ، وهو ككثيرٍ من لاَهُوتِّيى النصرانية، كالقديس كرِيزُسْتُوم وفِنِلُون فَرنْسوا السَّالىِّ، يبحثُ عن الصُّوَر المألوفة التى تُقَدِّمها الطبيعة, وأولُ دليلٍ يلتمسه، مَبْدَئيًا دائمًا، هو دليلُ السلطة، هو الدليلُ المقتبسُ من الكتاب المُنَزَّل، والدليل الثاني هو الدليل المقتبس من الحديث، وفي الدرجة الثالثة فقط يظهر الدليل العقلىّ، وذلك عند مايَرَى الدليلين الأوَّلين لا يَقِفان النظرَ بما فيه الكفاية. ومن الواضح أننا ندْخُل هنا جَوًّا آخرَ غيرَ الجوِّ الفلسفيِّ, وقد خَلَعْناَ زهوَ الذهن لندخلَ عالَمًا أكثر تواضعًا وأعظمَ وُدًّا وأشدَّ باطنًا.

وما يُدَبَّجُه يَرَاعُ الغزاليِّ من مْدح العلم عظيمٌ[1]، غير أن هذا المدح مُوَجَّهٌ إلى مفهومٍ يشابه مفهومَ الحكمة أكثر من مشابهته مفهومَ العلم بحصر المعنى، وذلك كما فى المِلل النصرانية, "قال صَلَّى الله عليه وسلم: " **أفضلُ الناس المؤمنُ العالمُ الذى إن احْتِيجَ إليه نَفَع، وإن استُغْنِىَ عنه أَغْنَى نفْسَه**"[2]، فقال صلى الله عليه وسلَّم: " **الإيمانُ عُرْيَانٌ، ولباسُه التقوى وزينتُه الحياءُ، وثَمَرته العلمُ**"[3]، وقد جُعِلَ القلم مساويًا للسيف: قال صلى الله عليه وسلَّم: " **أقربُ الناس من درجة النبوة أهلُ العِلْم والجهاد، أما أهلُ العِلمْ فدَلُّوا الناس على ما جاءت به الرُّسُل، وأما أهلُ الجهادِ فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرُّسُل**"[4]- وقال صلى الله عليه وسلَّم: "**يُوزَنُ يومَ القيامة مِدَادُ العلماء بدم الشهداء**"،[5]- وقد قيل: "ليس شىءٌ أعزَّ من العلم؛ الملوكُ حكامٌ على الناس, والعلماءُ حكامٌ على الملوك", وهذا العلم الصالح عِلمٌ خُلُقِىٌّ: قال صلى الله عليه وسلم: " **العلماءُ ورثةُ الأنبياء**", [6] وأعلى الرتب بعد النبوة هى رتبة العلماء الواعظين الذين يُقَرِّبون قلوب الناس من رَبِّهم، وذلك لأن" أشرفَ موجود على الأرض جنسُ الإنس، وأشرفُ جزءٍ من جواهر الإنسان قلبُه، والمعلِّمُ مشتغلٌ بتكميله وتجْليته وتطهيره وسِياقَتِه إلى القُرْب من الله عزَّ وجلَّ".

ومن العِلْم ما هو فرضٌ، قال النبىُّ: "**طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم** "[7] "**اطْلُبُوا العلم ولو بالصين**"[8]. وعلى أىّ شىء يقوم هذا العلم الذى يُفْرض طلبُه على كلِّ مؤمن؟ لقد اخْتُلِف فى هذا الأمر، قال الغزاليُّ ملاحِظًا: "واختلف الناس فى العلم الذى هو فرضُ على كلِّ مسلم فتَفَرَّقوا أكثرَ من عشرين فرقةً، ولا نُطيلُ بنقل التفصيل، ولكن حاصلَه أن كلَّ فريق نَزَّلَ الوجوبَ على العلم الذى هو بصَدَدِه، فقال المتكلمون: هو علم الكلام، إذْ به يُدْرَك التوحيد ويُعْلَم به ذاتُ الله سبحانه وصفاتُه، وقال الفقهاء: هو

---

(١) الإحياء ١ , ص ٤ - ٦ , باب فضل العلم.

(٢) قال العراقى فى المعنى فى تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه البيهقى فى شُعب الإيمان موقوفًا على أبى الدرداء بإسناد ضعيف ولم أره مرفوعًا [٦/١]

(٣) قال العراقى: أخرجه الحاكم فى تاريخ نيسابور بإسناد ضعيف المغنى للعراقى [١ / ٦].

(٤) أخرجه أبو نعيم فى فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس، السابق [١/ ٦].

(٥) أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف' السابق [٦/١].

(٦) أخرجه الترمذى وابن ماجه وابن حبان والحديث صحيح.

(٧) حديث حسن، وانظر صحيح الجامع الصغير.

(٨) أخرجه ابن عدى والبيهقى، وأسانيده ضعيفة، وحكم عليه البعض بالوضع.

علم الفقه، إذْ به تُعْرَف العبادات والحلالُ والحرام[1]... وقال المُفَسِّرون والمُحَدِّثون: هو علم الكتاب والسُّنَّة، إذْ بهما يُتَوَصَّلُ إلى العلوم كلِّها، وقال المتصوفةُ: المُرَادُ به علمُ التصوف، ويقَدِّم الغزاليُّ رأيهَ بدَوْره فيُلاَحَظُ فيه طابعُ الدين من حيث الجوهرُ، ولكنْ مع التفريق فيه بذوق سليم ساطع.

وعند الغزاليِّ أن العلم ينقسم إلى علم معاملة وعلمِ مكاشفة[2]، وهذا التقسيم نَقْلٌ عن تقسيم الفلاسفة للعلم إلى علمٍ نظريٍّ وعلمٍ أدبيّ، والعلمُ الذى يُكَلَّف به كلُّ إنسان عاقلٍ بالغ يشتمل على ثلاثة أقسام، وهى: الاعتقادُ وفعلُ ما يَجِبُ أن يُصْنَع واجتنابُ ما يجب أن يُتْرَك، فإذا بَلَغَ الرجلُ العاقلُ ضَحْوَةَ نهارٍ مثلاً فأولُ واجبٍ عليه هو تَعَلُّمُ كلمتى الشهادة وفَهْمُ معناهما، وهما: **"لا إلهَ إلاَّ اللهُ، محمدٌ رسولُ الله"**، وليس يَجِبُ عليه أن يَحْصُلَ كشفُ ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة، بل يكفيه أن يُصَدِّق به ويعتقده جَزمًا من غير اختلاجِ رَيْبٍ واضطرابِ نَفْسٍ، وذلك لأن النبىَّ اكتفى من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تَعَلُّم دليل؛ وهكذا فإن النبىَّ بَيَّن ما العِلمُ المفروض فى هذا الوقت الأول، فإذا مات هذا الرجل عُقَيْبَ ذلك حائزًا لهذا العلم مات مطيعًا غيرَ عاصٍ، وإنما يَجِبُ غيرُ ذلك بعوارضَ تَعْرِض، وهذه العوارضُ تَعْرِض وَفْقَ تقسيم العلم، فهى إما أن تَكُون فى الفعل وإما فى الترك وإما فى الاعتقاد، فأمل الفعلُ فبعَيْشِه من ضَحْوَة نهارِه إلى وقت الظهر، فيَتَجَدَّد عليه بدخول وقت الظهر تعلمُ الطهارة والصلاة، وهو، لكى يقوم بهذه التعاليم فى وقتها، يَجِبُ عليه أن يتعلَّمها قبل أقصى حَدٍّ من وقتها بزمنٍ قليل، أى قَبْلَ ساعة الزوال، وإن عاش إلى شهر رمضانَ وجب عليه تعلمُ أحكام الصوم فى الوقت المناسب كَيما يَعْمَلُ بها، وأما التُّرُوكُ فيجب عليه أن يتعلمها بحسب ما يَتَجَدَّد من الحال، وذلك يختلف بحال الشخص، فلا يجب على الأعمى تعلمُ ما يَحْرُم من النظر، ولا يجب على البدوىِّ تعلمُ ما يَحْرُم الجلوسُ فيه من المساكن، وأما الاعتقاداتُ وأعمالُ القلوب فيَجِبُ علمُها بحسب الخواطر، فإن خَطَر له شكٌّ فى المعانى التى تدلُّ عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلمُ ما يَتَوَصَّل به إلى إزالة الشكِّ، فإنْ لم يَخْطُر له ما يخالف الاعتقادَ ومات من غير أن يَعْرِف أدلةَ قِدَم الله وصفاتِه وغيرَ ذلك من البراهين الكلامية فإنه يكون قد مات مؤمنًا.

---

(١) الإحياء ١ ، ص ١٠ وما بعدها.

(٢) كاملة«المكاشفة» من اصطلاحات الصوفية.

وفى هذا التحليل يُشْعَرُ بشىءٍ من الاحتراز، ولكن من غير ميلٍ إلى الإساءة حِيَالَ العلم، ويُعَدُّ هذا المثلُ الأول ملائمًا إلى الغاية، وهو يُقَدِّم فكرةً عن المقاصد النفسية التى يتناول الغزالىُّ بها علمَ الكلام.

ثم يُقَسِّمُ إمامُنا العلومَ[٣] إلى علومٍ شرعية وعلوم غير شرعية ومن المفيد أن تُعْرَف فكرتُه حَوْل هذه الأخيرة، فالعلومُ التى ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم، فالمحمودُ ماترتبط به مصالحُ أمورالدنيا كالطبِّ والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرضُ كفايةٍ وإلى ما هو فضيلةٌ وليس بفريضة، أما فرضُ الكفاية فهو كلُّ علمٍ لا يُسْتَغْنَى عنه فى قِوَام الدنيا كالطبِّ إذْ هو ضروريٌّ فى حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب فإنه ضروريٌّ فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث، وكذلك أصولُ الصِّناعات من فروض الكفايات كالفلاحة والحِياكة والحِجامَة والخِياطة والسياسة، فالذى خَلَق الناسَ ذوى احتياجاتٍ أعطاهم وسائلَ لقضائها، فلا يجوز التعرُّض للضرر بإهمال هذه الوسائل، ولنلاحظ كيف أن هذه الفكرة قليلةُ الجَبَرية وكيف أنها تَحْمِلُ طابعًا نصرانيًّا.ـ وأما ما يُعَدُّ فضيلةً، فالتعمقُ فى دقائق الحساب وحقائب الطبِّ وغيرِ ذلك مما يُسْتَغْنَى عنه، ولكنه يفيد زيادةَ قوةٍ فى القدرِ المحتاج إليه، وهذا الرأىُ معتدلٌ واسعُ الأُفق معًا، فهو يَفْتَحُ للذهن، من غير توريطٍ، باب الاكتشاف العلمىّ على مِصراعيه, وعند مؤلِّفنا أنه لا يُوجَدُ مذمومٌ على التحقيق غيرُ علمِ السحر والطِّلَّسْمات وعلمِ الشعبذة والتلبيسات، وأما المباحُ من المذموم فالعلمُ بالأشعار التى لا سُخف فيها وتواريخُ الأخبار وما يَجْرِى مجراه، وعلمُ النحو نافعٌ فى دراسة كتاب الله، والتصوفُ تاجٌ لسلسلة العلوم.

ويُمْكِنُ أن يُرَى أن علمَ التاريخِ الكبيرَ المرتبطَ ارتباطًا وثيقًا بالعلوم الدينية والخُلُقية مُسْتَهَانٌ قليلاً مع ذلك، فإذا عَدَوْتَ هذه النقطةَ وجَدْتَ أن هذا الحكم فى العلوم هو حكمُ رجلٍ صائب، فهو كثيرُ القُرْب مما يجب أن يَكُون فى ذلك الزمن، وفى الزمن أيضًا، وهو حكُم نصرانىٌّ.

بَيْدَ أن الغزالىَّ تناول، على وجهٍ أكثرَ وضوحًا، مُعْضِلَةَ استعمالِ البحث النظرىِّ

(٣) الإحياء، ١ ، ص ١٢

فى موضوع علم اللاهوت، أو شرعيةَ هذا النوع من العلم الذى يُطْلِقُ العربُ عليه اسمَ "الكلام"، وسيُقَرِّرُ حكمه، من هذه الناحية، وضَعه الصحيحَ فى الصراع بين العقل والإيمان.

قال إمامنا[1] إن تَعَلُّم الجَدَلِ والكلام مذمومٌ كتعلُّم النجوم، أو هو مباحٌ أو مندوبٌ إليه، وإن للناس فى هذا غُلُوًّا وإسرافًا فى أطراف، فمن قائلٍ إنه بدعةٌ وحرام وإن الإنسان إن لَقِىَ اللهَ بكلِّ ذنبٍ سوى الشِّرْك خيْر له أن يَلْقاه بالكلام، ومن قائلٍ إنه واجبٌ وفرضٌ، وإلى التحريم ذهب الشافعىُّ ومالكٌ وأحمدُ ابن حنبل وسفيانُ الثوري وجميعُ أهل الحديث من السلف، وإلى الشافعىِّ يُعْزَى الرأىُ المذكور الذى يَضَعُ "الكلام" فى الدرجة الأولى من الذنوب بعد الشِّرْك، وإلى الشافعىِّ يُنْسَبُ القولُ الآتى فى أثناء مرضه، وهو: "لو عَلِمَ الناسُ ما فى الكلام من الأهواء لَفَرُّوا منه فِرارَهم من الأسد[2]، وذهب أحمدُ بن حنبل إلى أن علماء الكلام زنادقةٌ[3]، وأبدى مالكٌ الملاحظةَ الصائبةَ القائلة. "أرأيتَ إن جاء عالِمَ الكلام من هو أجدلُ منه، أَيَدَعُ دينَه كلَّ يومٍ لدينٍ جديد؟"، وإلى هذه المَذَمَّات يضاف ما صَبَّ النبي من لعنةٍ حيث قال: **"هلك المُتَنَطِّعُون، هَلَك المتنطِّعون"**، أى المتعمقون فى البحث والاستقصاء!.

ومن ناحيةٍ أخرى تَرَى أنصار علم الكلام يُعَرِّفونه ويدافعون عنه بقولهم: إن الكلام ليس سوى معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الله وصفاته، وهو يُعَلِّم ذلك بطريق العقل، وعلى مَنْ يقوم بذلك أن يحترز من التَّشَعُّب والتعصب والعداوةِ والبغضاء وغيرِ ذلك من الأمور التى لا يُفضى إليها الكلامُ أكثرَ مما يُفضى علمُ الحديثِ والتفسير والفقه من الكِبْر والعُجْب والرياء وطلب الرياسة، أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: "قُلْ هَاتُوا بُرْهانَكُمْ"و" لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَىَّ عَنْ بَيِّنَةٍ"؟، وهذا كلامٌ قويٌّ يُسْتَشْهَدُ به لمنفعة النَّقاش الفقهىِّ، وكذلك انْظُرْ إلى الكلمة الآتية التى تُقابَلُ القوة فيها بالحقِّ، وهى: "هلْ عندكم مِنْ سلطانٍ بهذا"، أى حجةٍ وبرهان؟، ويُسْتشهدُ بعلىٍّ عَلَى أنهَّ سَنَّ عادةَ المجادلة، فتُرْوَى عنه مناظرة للخوارج أسفرتْ عن رجوع ألفين منهم إلى الطاعة، كما تُرْوَى مناظرةٌ منه للقَدَرية نَرَى من التطويل بيانَ تفصيلاتِها هنا.

---

(١) الإحياء١، فى كتاب «قواعد العقائد»، فصل٢، ص ٧٠ وما بعدها.

(٢) إذا ما عدت هذه الأخبار صحيحة وجب حملها على المعنى القديم لكلمة الكلام التى كانت تصرف إلى روح الجدل العنيف وروح النقد الخبيث الموجه إلى قواعد الدين، فالحق أن الشافعى لم يكن عدوا لاستعمال ملكة العقل فى موضوع الدين استعمالا معتدلا.

(٣) لا توجه هذه الكلمة إلى غير الملاحدة، وموضوع الكلام هنا وفق ذهن المعتزلة.

ولذا كان على الغزالىِّ أن يختار بين هذين الرأيين المتعارِضين حِيال صحة الكلام نِسْبيًّا، فتراه يُجيب بتفريقٍ أُلْهِمَ إليه بشَوَاغِلَ من مَقُولةٍ عملية وخُلُقية، وهو، بعد أن ذَكَر أمورًا محظورة لذاتها، كالخمر وملامسة المَيْتَة، وأمورًا أخرى محظورة لِمَا يمكنُ أن ينشأ عنها من ضَرَر، قال مُحَقِّقًا، بوجودِ نفع فى علم الكلام وخَطَر، فهو باعتبار منفعته فى وقت الانتفاع حلالٌ أو مندوبٌ إليه أو واجب كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرته فى وقت الاستضرار ومحلّه حرام، ويقوم خطر دراسة علم الكلام على إثارة الشُّبُهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم، وتَحْصُل هذه النتيجة فى الابتداء لجميع الناس، ولا يعرَف، دائمًا، هل يرجعُ كلُّ واحدٍ، فيما بعدُ، إلى متانة الإيمان بالدليل. ولدراسة الكلام خطرٌ آخرُ فى تأكيد اعتقاد المبتدعه للبِدْعة وتثبيته فى صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتدُّ حرصُهم على الإصرار عليه. وأعتقدُ أن هذه الملاحظة تنطبقُ فى ذهن الغزالىِّ على جدالٍ يَقَعُ بين المؤمنين والكافرين فى البلدان التى يكُون الكافرون فيها كثيرين جدًّا، ويُزْعَمُ أن فائدة علم الكلام تقوم على كشف الحقائب ومعرفتها على ما هى عليه، ويجادل الغزالىُّ فى هذه الفائدة، وهنا تظهرُ مَنازِعُه الارتيابيةُ، أى شَكُّه فى تأثير العقل، فقد قال: "وهَيهاَت، فليس فى الكلام وفاءٌ بهذا المطلب الشريف، ولعلَّ التخبيطَ والتضليلَ فيه أكثر من الكشف والتعريف"، أَجَلْ، قد يُلْقِى الكلام قليلاً من النور، ولكنْ على أمورٍ كانت معروفةً بجلاء قبلَ طرْق بابه، ولا مِرَاء فى أنه يتألف من الكلمة الآتية موضوعُ جميعِ اللاهوتِ الفلسفىِّ الأساسىُّ، وهو أن البَرْهنة عنده ليست غيرَ وسيلة للكشف، وهى لا يُمْكِنُ أن تنفع لغيرتأييد ما كان الدينُ يعْرِفه من حقائق ومن ترتيب هذه الحقائق وإلقاءِ نورٍ عليها.

ويقول الغزالىُّ مستنتجًا إن منفعة الكلام شىءٌ واحد، وذلك إذْ يَدَعُ هذه الشواعلَ الخليقةَ برسولٍ أو راعٍ للنفوس، تظهر، وهذا الشىء هو حراسةُ العقائد المترجمةِ للعوامِّ وحفظُها عن تشويشات المبتدِعة بأنواع الجدَل، لأن العامىَّ ضعيفٌ يستفزُّه جدَلُ المبتدع، والناس مُتَعَبِّدون بهذه العقائد التى ورد الشرع بها فيجب أن تُتْرِك لهم سلامةُ عقائدهم، وينطوى تعليمهُم الكلام على خَطَرٍ محض، ولا يمكنُ هذه الدراسة إلاَّ أن تُزَلْزِل عليهم الاعتقاد، ولا يمكن بعد ذلك رجوعُهم إلى سلامة الاعتقاد الأول، وأما العامىُّ المعتقِدُ للبدعة فينبغى أن يُدْعَى إلى الحقِّ بالتلطف، لا بالتعصب، وبالكلام اللطيف المُقْنِع للنفس المؤثر فى القلب القريب من سِيَاق أدلة القرآن والحديث، فإن ذلك أنفعُ من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين، وذلك لأن هؤلاء المبتدِعة

إذا كانوا لا يشُعرون بقدرتهم على الجواب بأنفسهم عن جدَل المتكلمين أمكنهم أن يعتقدوا، دائمًا، وجودَ مَنْ هو أقدرُ منهم على صنع ذلك، وأما فى البلاد التى تكُون البدعةُ شائعةً فيها ويُخاَفُ على الصبيان أن يُخْدَعوا فقد قال الإمام الغزالىُّ إنه لا بأسَ أن يُعَلَّمُوا القدرَ الذى أودعناه كتابَ "الرسالة القدسية"، وسنرى عما قليل ما هذه الرسالة، ليَكُون ذلك سببًا لدفع تأثير مجادلات المبتدِعة إن وقعت إليهم. وهذا الكتابُ مختصر، ويمكن ذوى الذكاء الحادِّ من الصبيان أن يَرْقَوْا منه إلى المقدار الذى ذُكِرَ فى كتاب "الاقتصاد فى الاعتقاد"، وهو قَدْرُ خمسين ورقةً، وليس فى هذا الكتاب خروجٌ عن النظر فى قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين، فإذا لم يُقْنِعهْ هذا الكتاب فلينتظر قضاءَ الله فيه إلى أن ينكشف له الحقُّ أو يستمرَّ على الشكِّ والشبهة إلى ما قُدِّرله، وذلك كما قال الإمامُ مُضِيفًا.

ومن ثَمَّ تَكُون فكرةُ الغزالىِّ قد اتَّضَحَتْ فى نظرنا، وذلك أن البرهنةَ لا يُمْكِنُ، بحالٍ، أن تقيمَ حقائقَ الإيمان ولا إثباتَ هذه الحقائق إثباتًا وَكيدًا، وإنما تستطيع أن تُعِينَ على الإيمان فى بعض الأحيان، ولكن مع ضَرِّه غالباً، وأما الدقائقُ الكثيرة التى أدخلها المتكلمون إلى علم الكلام والمسائلُ الملازمةُ التى أضافوها إليه فقد نَبَذَها الغزالىُّ جملةً، وقد ذهب إلى ما هو أحسنُ من هذا، وذلك أنه ازدراها وأهملها على أنها مباحثَ لاغيةٌ وأوهامٌ باطلة.

وكان الأشعرىُّ والمتكلمون قد أثاروا مسئلةَ طبيعة الإيمان ودرجاته وتمييزه من الإسلام، وهذه مسئلةٌ دينيةٌ على الخصوص، ومع ذلك فإن لها نواحِىَ ممتعة فلسفيًّا ونفسيًّا حافزةً لنا إلى ذِكْرِها فى بضع كلمات، فنقول: إن الغزالىَّ سار على أثر الأشعرىِّ فقال بما تقول به اللغةُ العادية من وجود فرقٍ بين الإيمان والإسلام[1]، فالإيمانُ هو التصديق بالعقائد المعروضة، والإسلام أوسعَ مَدى، وهو "تسليم" القلب واللسان والجوارح إلى مشيئة الله، وليس الإيمانُ غيرَ أشرف أجزاء الإسلام، وليست الأعمالُ جزءًا من الإيمان، وهى تُضَاف إلى الإيمان أو تُفْصَل عنها تَبَعًا لصلاحها أو سوئها، وبهذا المعنى قال المتقدمون: إن الإيمان يزيد وينقص بالطاعة أو المعصية، وذلك لأن الإيمان بمعنى الاعتقاد لا يزيد ولا ينقص، ومن بِدَع المعتزلة أن قالوا إن المؤمن الذى يرتكب الكبيرةَ يَخْرُج من الإيمان من غير دخولٍ فى الكفر ومع شَغْلٍ لمنزلةٍ

(١) الإحياء، الكتاب نفسه، الفصل الرابع فى « الإيمان والإسلام» ، ص،- ٨٧ انظر إلى مهرن، رسالة فى إصلاح الإسلام ٥١ : ١٨.

بين المنزلتين، وغيرُ هذا ما يَذْهبُ إليه الغزاليُّ ومذهبُ أهل السُّنَّة، ومن ذلك أن الزانـى لا يَخْرُج من الإيمان بالزِّناء، وإنما يَعُود غيرَ تامَّ الإيمان، وهو فى هذا كالعاجز المقطوع الأطراف الذى يقال عنه إنه ليس بإنسان، أى ليس إنسانًا كاملاً، والإيمانُ عند مُعْظم الناس، من الناحية النفسية، يُطْلَقُ، كما يَرَى إمامُنا للتصديق بالقلب من غير كَشْفٍ وانشراح صَدْرٍ على حسب ما يكون لدى الصوفية، فهذا الإيمانُ عُقْدةٌ على القلب، تارةً تشتدُّ وتقوى وتارةً تَضْعُف وتسترخى، ويَكُون للإيمان درجاتٌ من هذه الجهة أيضًا، ومن ذلك أن اليهودىَّ من الصلابة فى عقيدته بحيث لا يُمْكِنُ فصْله عنها بتخويفٍ وتحذير، ولا بتخييل ووعظٍ، ولا بتحقيقٍ وبرهانٍ، وهو فى هذا على عكس النصرانىّ الذى هو من ضعف العقيدة بحيث يُمْكِنُ تشكيكُه بأدنى كلام ويُمْكِن استنزالهُ عنها بأدنى استمالةٍ أو تخويف، ويقوم الغزاليُّ فى أمر نقصان الإيمان بتحليل دقيق وبعلمٍ نفسيٍ رقيق نأسَفُ على أن ضِيقَ نطاق هذا الكتاب يَحُول دون عَرْضهما.

ولنْقَدِّم الآن بيانًا عن لاهوتية الغزالى التى يتألف منها قسمُ علمِه الكلامىِّ الجوهرىُّ، ولا ينبغى توقُّعُ مفاجآت فى عَرْض هذا المذهب، فهو معلوم، وهو ما قال به الإسلام السُّنِّىُّ، وهو مذهب القرآن من حيث الأساسُ ومع تَنَوُّعٍ فى الأشكال، ويقوم إمتاعه، من ناحيةٍ، على طريقة ترتيبه وعلى الوجه الذى نُظِّمت به براهينهُ، ويقوم، من ناحيةٍ أخرى، على ما بينه وبين مذاهب ابن سينا من تضادّ، وعلى ما كان من اقتباس الغزاليِّ بعضَ الشىء من ذهْنِ ابن سينا فى الترتيب والمنهاج، فإن الغزاليَّ قد تَخَلَّصَ تمامًا من المؤثِّر المذهبىِّ فى الحكمة الوثنية مرتبطًا فى مفاهِيمَ ذاتِ صبغةٍ دينيةٍ بالغةٍ صادرة عن التوراة ومَصُوغَةٍ بالنصرانية، وليس من الرأى أن تحاوَل مقارنتهُ بأىِّ فيلسوف يونانىّ، فالأجدرُ أن يقابَل بالقديس أوغستن مثلًا. ومع ذلك فإن من العسير تعيينَ المؤثراتِ التى هى من هذا القبيل، وإنما نرى أن البحث عن سِرِّ ذلك في الأدب السريانىِّ أقربُ إلى الصواب.

وليس قسمُ " الإحياء" المشتملُ على لاهوتية الغزالىّ (جزء١، كتاب٢، فصل٣) شيئًا آخرَ غيرَ "الرسالة القدسية" التى أوصى العوامَّ بقراءتها آنفًا، واللهُ أولُ من وضع فى هذا المذهب على رأس الإيمان[1]، وعاد لا يَكُون فى آخر بيان المذهب، كما عند الفلاسفة، حدٌّ قَصِىٌّ مُسْتَغْلِقٌ منيعٌ، فهو يُوصَلُ إليه حالاً، والكلامُ المُنَزَّل، أى القرآن، هو

(١) الإحياء، ص٧٨ وما بعدها.

الذى يُثْبِتهُ، والبرهانُ الطبيعىُّ هو الدليلُ المُفَضَّلُ لدى الغزالىِّ بين براهين الله التى يأتى بها القرآن، وذلك أنه يَرْقى رُقِيًّا مستقيمًا من منظر العالم إلى الله، قال النبىُّ مِنْ لَدُن الله: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبأ: ٦ـ٧)ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ (البقرة:١٥٩) ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (نوح:١٤)ـ وإليك ما يَرَى الغزالىُّ من أدلةٍ حقيقية، قال الغزالىُّ: " فى شواهد القرآن ما يُغْنِى عن إقامة البرهان، ولكنَّا على سبيل الاستظهار والاقتداءِ بالعلماء النُظَّار نَقُول: من بَدَائهِ العقول أن الحادث لا يستغنى فى حدوثه عن سببٍ يُحْدِثُه، والعالَمُ حادثٌ، فإذًا لا يُسْتَغْنَي فى حدوثه عن سبب"، وهذا قياسٌ سِكُلاَسِىٌّ لا حقٌ جاء عَقْبَ الكلام المنزل، لالكشف حقيقةٍ ظُفِرَ بها، وإنما أُتِىَ به لتقوية إيمان ضعيف. ويُوضِحُ إمامُنا مُقَدِّمتى القياس الكُبْرَى والصُّغْرى تتابعًا، فالكُبْرى هى أن كلَّ حادث مختصٌّ بوقتٍ يَجُوز فى العقل تقديمهُ وتأخيرُه؛ فاختصاصُه بوقته دُونَ ما قَبْلَه وما بَعْدَه يَفْتَقِربالضرورة إلى المُخَصِّص، والصُّغْرى هى أن الأجسام لاتَخْلُو عن الحركة والسكون، وهما حادثان، وما لا يَخْلُو عن الحوادث فهو حادث، وبرهانُ الصُّغْرَى هذا أُوضِحَ بدَوْرِه، وذلك أنه يشتمل على ثلاث دعاوى، فالأولى، وهى أن الأجسام لا تَخْلُو عن الحركة والسكون، مُدْرَكةٌ بالبديهة، والثانيةُ وليدةُ التجرِبة التى تُرِينا تعاقبَ السكونِ والحركة، وهذا مشاهَدٌ على العموم كما لاحظ الغزالىُّ، وما أبْدَى الغزالىُّ من شكٍّ على هذا الوجه يَحُول دُون الزَّكَانة، وذلك أن الفلاسفة، إذْ لم يَرَوْا أن حركاتِ الأفلاك تَعْقُب السكونَ وأنها تؤدى إليه، حَكَمُوا بقِدَمها، وأن إمامنا يُؤَكِّدُ، مع ذلك، عدمَ تصور الذهن لجسمٍ ساكنٍ من غير أن يتصورَ إمكانَ حركته، والعكسُ بالعكس، بَيْدَ أن البرهان يصير باطنيًّا، ولا أدرى هل يَشْعُر المؤلِّفُ نفسهُ بضعف هذا أوْ لا، وأما الدعوى الثالثة، وهى مالا يَخْلُو عن الحوادثِ فهو حادثٌ، فيلاحظ إمامُنا أنه عند افتراض العكس تَكُون هنا لك حوادثٌ بلا حادثٍ أول، ويَجُرُّ هذا إلى سلسلةٍ لا نهايةَ لها، وإلى عددٍ لا حَدَّ له، فيُصَرِّح إمامُنا بأن هذا محال.

وما يجب أن يُعْلَم عن الله؟ يَجِبُ أن يُعْلَمَ أنه أزلىٌّ، وأنه أبدىٌّ، وأنه ليس مَتَحَيِّزًا، وأنه ليس بَعَرَض، وأنه مُنَزَّه الذات عن الاختصاص بالجهات، وأنه واحد، وهذه ليست صفاتٍ لله، وإنما هى أحوالٌ يُبْعِدُها المؤلِّفُ عن المفهوم الإلهىّ، ويضيف مؤلِّفنا إلى هذه الأحوال السلبية حالَين ذواتى صبغةٍ إيجابية، ولكن مع كونهما أكثرَ خُصُوصِيَّةً

بالدين، وهما: أن اللهَ «مُسْتَوٍ على عَرْشه"، وذلك وَفْقَ تعبيرٍ وَرَد فى القرآن، وأنه مَرْئىٌّ بالأبصار فى الدار الآخرة.

وقد صاغ الغزالىُّ برهانَ هذه الأصول على وجهٍ عقلىّ، وذلك أن الله أزلىٌّ، فلوكان حادثًا ولم يَكُنْ قديمًا لا فتقر هو أيضًا إلى مُحْدِثٍ، وافتقر مُحْدِثُه إلى مُحْدِثٍ وتسلسل ذلك إلى ما لانهاية،ـ وذلك أن الله أبديٌّ، وقد ساق قلمُ الغزالىِّ إلى الكلمة" فهو الأول والآخر" التى تذكَّر بكلمة "المبدأ والمنتهى" النصرانيةِ، وإلى كلمة" والظاهر والباطن"، وإليك كيف جُعِلَ البرهان: لو انعدم الله لانعدم بنفسه أوبِمُعْدِمٍ يضادُّه ولو جاز أن يَنْعَدِم شىءٌ يُتَصَوَّرُ دوامُه بنفسه لجَاز أن يُوجَدَ شَىْءٌ يتصور عدمه بنفسه، وباطلٌ أن يَنْعَدِم بِمُعْدِمٍ يضادُّه، لأن ذلك المُعْدِم لو كان قديمًا لما تُصُوِّرُ الوجوُد معه، وقد ظَهَر وجودُه وقِدَمُه فكيف كان وجودُه فى القِدَم ومعه ضِدُّه، فإن كان الضِّدُّ المُعْدِمُ حادثًا كان محالاً، إذْ ليس الحادثُ فى مضادَّتِه للقديم حتى يَقْطَعَ وجودَه بأَوْلَى من القديم فى مضادَّتِه للحادث حتى يدَفَعَ وجودَه، بل الدفعُ أَهْوَنُ من القَطْع، والقديم أقوى وأَوْلَى من الحادث،ـ وذلك أن اللهَ ليس بجوهرٍ يَتَحَيَّز، فكلُّ جوهرٍ مُتَحَيِّز مختصٌّ بحَيِّزه، ولا يَخْلُو من أن يَكُون ساكنًا فيه أو متحركا عنه فلا يَخْلُو عن الحركة والسكون، وهما حادثان، وما لا يَخْلُو عن الحوادث فهو حادث،ـ وذلك أن اللهَ ليس بَعَرَضٍ قائمٍ بجسم، ولا كبيرَ فائدةٍ فى إثبات هذا، فالله لا يشابه شيئا فى هذا العالَم المؤلَّف من جواهرَ وأعراضٍ، ولا يُمْكِنُ الحُكْمُ فى أمره بالقياس والمحاكاة، ويجب أن يُفَسَّرَ مِثْلُ كلمة "مستوٍ على عرشه" تفسيرًا معنويًّا خالصًا، وذاك يَعْنِى سلطانَه مع امتناع تَطَرُّق الفناء إليه.

وقُلْ مِثْلَ هذا عن الكلمات: "قَلْبُ المؤمنِ بين إصبعين من أصابع الرحمن" و"هُوَ مَعَكُمْ أَيْنمَا كنتم"،ـ وذلك أنَّ الله مرئىٌّ بالأبصار، وهذه الرؤية نوعٌ من الكشف والعلم أكثرُ كمالاً ووضوحًا من العلم العادىِّ، وسيُرَى اللهُ فى الدار الآخرة من غير كيفية وصورة، ولايُمْكِن أن يُرَى فى هذه الحياة الدنيا كما يَدُلُّ عليه امتناعُ ذلك على موسى ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٩)، ويَبْدُو لى أن الكلمة التى يستند إليها الغزالىُّ فى مشاهدة الله فى الدار الآخرة تؤلِّف دليلاً غيرَ وارد وهى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٢٢ـ٢٣)، وذلك أن الله واحد، وتأتى عقيدةُ وحدانيةِ الله المشهورةُ، التى لها فى القرآن مكانٌ بالغُ الأهمية، فى الدرجة العاشرة من "الإيمان" للغزالىّ، كما لو كان الأمر غيرَ محتاجٍ

كثيرًا إلى وَقْف النظر، وهو قد عُرِض فيه بأربعة أسطرٍ مشتملة على برهانٍ سائبٍ لارَيْبَ، ولكن مع شيءٍ من السذاجة، وهو أنه لو كان هناك إلهان لم يُمْكِن أن يَكُون هناك مريدان مختلفان من غير أن يَقْهَر أحدُهما الآخرَ ولا ينفكَّ يَكُون إلهًا، جاء فى القرآن: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وعدُّد صفات الله التى يُحْصِيها الغزالىُّ سبعٌ، وهى أن الله قادرٌ وعالمٌ وحَىٌّ ومُرِيدٌ وسميعٌ وبصير ومتكلِّم، وهذه الصفاتُ قديمةٌ ولها وجودٌ إيجابىّ. وإمامُنا، إذْ يُوضِحُ هذه الصفات، يُبْعِدُ بكلِّ عنايةٍ جميعَ الاعتبارات الدقيقة التى أدت إليها سواء أعند المتكلمين أم عند المعتزلة، وهو يُثْبِتُ القدرةَ بالدليل الطبيعىِّ كما أَثْبَت وجودَ اللهِ آنفًا، وذلك كما سار عليه فِنلُون، قال الغزالىُّ :" ومن رأَى ثوبًا من ديباج حَسَنَ النَّسْجِ والتأليف متناسبَ التطريز والتطريف، ثم تَوَهَّم صدورَ نَسْجِه عن مَيِّتٍ لا استطاعةَ له أو عن إنسانٍ لا قدرةَ له كان مُنْخَلِعًا عن غريزة العقل ومُنْخَرِطًا فى سِلْك أهل الغباوة والجهل"، وهذا هو شأن ذاك الذى يشاهِد جمالِ العالَم ولا يَعْزُوه إلى صانعٍ قديرٍ مُرِيد، ويَكْفى هذا البرهان ـ وعلمُ اللهِ بجميع الموجودات، وهذه نقطةٌ يَصْعُب تأييدها وَفْقَ مبادىء الفلاسفة، هو نتيجةُ ذات البرهان، وذلك أنك تَجِدُ فى أحقر الأشياء وأضعف الموجودات ترتيبًا وترصيفًا أيضًا ـ والله حىٌّ مُرِيد، ويظهر أن برهان هاتين الصفتين وما بعدهما يكاد يَغْدُو غير مُجْدٍ عند الغزالىّ الذى يسير والإيمانَ والذى عاد لا يُورِدُ غير نصوصٍ قصيرة من القرآن مضيفًا إليها مثل التأمل الآتى: "كيف يُشَكُّ فى حياة أرباب الحَرف والصناعات؟ وكيف لا يكُون مريدًا وكلُّ فعلٍ صَدَر عنه؟" ـ واللهُ سميعٌ بصير، فلا يَعْزِبُ عن رؤيته هواجسُ الضمير وخفايا الوهم والتفكير،" ولا يُشِدُّ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء"، ويُكَرِّر عينُ البرهان: وكيف لا يكون سميعًا بصيرًا والسمعُ والبصر كمالٌ، لا محالةَ، وليس بنقصٍ، وكيف يكُون المخلوق أكملَ من الخالق والمصنوعُ أَسْنَى وأتمَّ من الصانع؟ ـ واللهُ متكلمٌ بكلامٍ، وهو وصفٌ قائمٌ بذاته ليس بصوت ولا حرْفٍ، بل لا يُشْبِهُ كلامَه كلامُ غيره، كما لا يُشبهُ وجودَه وجودُ غيره، قال الشاعر:

إنَّ الـكَـلامَ لِـفـى الـفُـؤادِ وَإنـمـآ جُـعِـلَ الـلـسـانُ على الـفـؤادِ دليلاً

ولا حُلُولَ لذاتِ كلام اللهِ فى الورَق، إذْ لو حَلَّ ذات الكلام فى الورق لحلَّ ذات اللهِ،

بكتابةِ اسمِه، فى الورق، وحَلَّتْ ذات النار بكتابةِ اسمها فى الورق ولاحْتَرَق.ـ والكلامُ قديمٌ كجميع الصفات الإلهية، وذلك لأن الله لا يمكنُ أن يَكُون محلاً للحوادث وموضعًا للتغير، وليس من الحوادث غيرُ الأصوات التى تدلُّ على هذا الكلام القديم، وعلم الله قديم أيضًا، وهو يَعْلَمُ الأشياءَ فى أوقاتها، وذلك كعلمنا أنَّ فلانًا سيأتى عند طلوع الشمس، وكذلك إرادتهُ قديمة، وهى فى القِدَم تَعَلَّقَتْ بإحداث الحوادث فى أوقاتها اللائقة بها على وَفْقِ سَبْقِ العلم الأزلىّ، وصفاتُ الله موجودة، وليست مفهوماتٍ سلبيةً نستعين بها لوَصْفِه فقط، فالله عالم بعلمٍ، قادرٌ بقدرة، حىٌّ بحياة، فقول القائل: عالمٌ بلا علمٍ، كقوله: غنىٌّ بلا مال، والعلمُ والمعلومُ والعالِمُ أمورٌ متلازمةٌ كالقتل والمقتول والقاتل.

وتُكْمِلُ نظرية اختيار الإنسان لاهوتيةَ الغزالىِّ، وقد فَصَّلَ الغزالىُّ هذه النظريةَ مُوَجِّهًا هَمَّه إلى توكيد الإرادة الإلهية ومناضلةِ مذاهب المعتزلة، وهو يَتَّخِذُ مذاهبَ المتكلمين مُبَسِّطًا إياها.

وكلُّ حادثٍ فى العالَمِ هو من صُنعِ الله وخلْقه، وهذا المبدأ الأول فى هذا الموضوع، ولكنك إذا نظرتَ إلى الأمر من الناحية الأخرى وجدت أن الأمر القائل بأن الله مُحْدِثُ حركاتِ الناس لا يمنَعُ من كَون هذه الحركاتِ مَقْدُورةً بالإنسان وَفقَ كيفيةٍ تُجيزُ عزوَها إليه، وهذه الحركات وإن كانت مكتسبةً بالإنسان تَبْقَى على مُرَاد الله.

وإليك توكيدَ هذه النظرية فجميعُ أفعال الناس مخلوقةٌ من الله ومتعلقةٌ بقدرته تصديقًا لِماَ جاء فى القرآن: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ (الصافات: ٩٤)، وهذا ثابتٌ بالتأمل أيضًا: فكيف تُتَصَوَّرُ حركات تُفْلِتُ من قدرة الله؟ وكذلك يعود الغزالىُّ بهذا الصَّدَد إلى نوع الدليل الذى يَوَدُّ، أى البرهانِ الطبيعىِّ، وذلك: كيف يَصْدُر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات ما يَتَحَيَّرُ فيه عقول ذوى الألباب، فكيف انفردت هى باختراعها دون ربِّ الأرباب؟ـ واللهُ خَلَقَ القدرةَ والمقدورَ جميعًا، وخلقَ الاختيارَ والمختارَ جميعًا، فأما القدرةُ فوصفٌ للإنسان وخلقٌ من الرَّبِّ وليس بكسبٍ له، وأما الحركة فخلقٌ من الربِّ ووَصْفٌ للإنسان وكَسبٌ له، وفعلُ الإنسان هو بالحقيقة، مقدورٌ من الله ومن الإنسان معًا، ولكن على وجهين مختلفين، فالمقدور من الله اختراعٌ، والمقدور من الإنسان اكتسابٌ.ـ وفعلُ الإنسان، وإن كان كسبًا للإنسان، لا يخرُج عن كونه مرادَ الله، "فلا يجرى فى المُلْك والمَلَكوت[1] طرفةُ عين ولا لفتةُ

(١) اصطلاحان صوفيان معلومان يعين بهما مجموع الأشياء.

خاطر ولا فَلْقَةُ ناظرٍ بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته، ومنه الشرُّ والخيرُ والنفعُ والضرُّ والإسلامُ والكفر..."ـ ولْنُمْسِكْ عن إبداء أيِّ تقدير لهذا المذهب الوَعْر، الذى شَغَلَتِ السُّنَّةُ فيه بالَ الغزالىّ، فأُفْجِمَ الغزالىّ بالكلام المُنَزَّل وقُيِّدَ بالحديث فلم يستطيع أن يتخلَّص من الجَبْرية تمامًا.

والله الفَعَّال يَعْمَلُ عن لطفٍ، والله كريمٌ إذْ يَخْلُق ويُحْدِث، وهو جوادٌ إذ يَفْرِض الشرع على الناس، وهو غنيٌّ عن الخَلْق والشرع، وقد رأى المعتزلةُ أنه مُلْزَمٌ فى فعله بمصلحة الناس، وهذا قولٌ فاسدٌ، مادام اللهُ هو الذى يَخْلُق الوجوبَ ويأمرُ وينهى، ويَجُوز على الله أن يُكَلِّف الخَلْقَ مالا يطيقونه خلافًا لرأى المعتزلة، ولله إيلامُ الخلق وتعذيبهُم من غير جُرْمٍ سابق ومن غير ثوابٍ لاحق خلافًا للمعتزلة أيضًا، وذلك لأنه متصرفٌ فى ملكه، والظلم هو عبارة عن التصرف فى ملك الغَيْر بغير إذنه، وهو محالٌ على الله واللهُ يفعَلُ بالناس ما يشاء، فلا يجب عليه رعايةُ الأصلح لعباده لِمآ لا يَجِبُ عليه شىءٌ، وإن معرفة الله وطاعتَه واجبةٌ بإيجاب الله وشرعه، لا بالعقل خلافًا للمعتزلة، وذلك لأن العقل، وإن أوجب الطاعة، لا يَخْلُو إما أن يوجبها لغير فائدةٍ، وهو محال، وإما أن يوجبها لفائدة وغَرَض، والواقعُ أنه لا شىءَ يُفيدُ الله، وفائدة الإنسان فى أن ينال ثوابًا ويجتنب عِقابًا، ولا يعرِف الإنسانُ هذا إلاَّ بالشرع.

وليس من غير غَمٍّ أن كنتُ أُورِدُ هذه النظريةَ البالغة القسوة عن الإرادة الإلهية وإن كانت وثيقة المنطق، لو لم أُبْصِرْ فى هذا الحدس من صعوبةِ الموضوع والرغبةِ فى تعيين قضاياه وتنظيمها ووجوبِ مقاومة نظريات أحد المذاهب الإلحادية الكثيرةِ الحرية ما حَمَلَ مؤلِّفنا على مخالفة فكرته الخاصة بعضَ الشىء. مهما يَكُنْ من تمام الاستقلال الإلهىِّ فإنه لايُمْكِن تشبيههُ بهَوَى الطُّغاة، وما كان ليُمْكِنَ أن يساوِرَ الغزالىَّ هذا المَقْصِدُ وهو الذى كان عارفًا، كما يجب، بمفهوم الخير الكامل الذى كانت تُزَوِّدُه به الأفلاطونيةُ الجديدة والنصرانيةُ، وهو الذى كان يُمْكِنُه، عند عدم هذه المصادر، أن يكتشف فى قلبه هذا المفهومَ كما يَحْمِل على اعتقاد وقوع هذا تصوفُه وأخلاقُه، فيجب، والحالةُ هذه، عَدُّ النظرية التى يَعْرِض علينا فى العبارة المذكورة ناقصةً سلبيةً على الخصوص مقصورةً على تلك الفائدة الخاصة فى الدفاع عن حرية الله المهدَّدة فى ذلك الزمن بما كان يُفْرِط فيه بعضُ العلماء فى توسيع مدى اختيار الإنسان، وليس أقلَّ من هذا إدراكُ الإمام العربىِّ الغزالىّ، (وهذا ما يشير إليه فى هذا الموضع أيضًا إذْ يقول لنا إن الخَلْقَ والشرع نتيجةُ لطفٍ خفىّ)، وليس أقلَّ من هذا، كما أقول، إدراكُه وشعورُه أن هذا الشرع بعيدٌ من أن

يَكُون عاديًّا حِيالَ الإنسان فيُفْرَض عليه مِثْلَ ابتلاءٍ مُرَادِيٍّ نَيْلاً لِماَ لا يُعْرَف من ثواب، وأن الشرع هو بالعكس، قاعدةٌ وطريقة، كما يجب أن يكون، معروضتان على الإنسان بحكمةٍ ربانية لتمكينه من تحقيق أتمِّ نشوءٍ وأَسْمَى كمالٍ فى طبيعته.ـ ولا أُسْهِبُ أكثرَ مما صنعتُ فى بيان هذه الملاحظة مقتنعًا بأن ما ياتى يُسَوِّغها.

وإنا، قبل أن نترك علمَ الكلام لدى الغزالىِّ، يُمْكِننا أن نُبْصِرَ بعضَ الفائدة فى إلقاء نظرةٍ على الوجه الذى طَبَّق به هذا الإمامُ روحًا فلسفية على بعض آى القرآن الجافية ظاهرًا. وللغزالىِّ رسالةٌ صغيرة اسمها" المَضْنُون"[1] تشتمل على أمثلة حَسَنة فى هذا الموضوع، ففى هذه الرسالة بحثٌ عن الأمور التى يجب أن تَحْدُث يوم الحساب أوْ فى أحوال ما بعد الموت عند المسلم والتى يُعْلَمُ أن القرآن قَدَّم عنها مناظرةً ماديةً كثيرًا، وهكذا فإن الصراطَ الممدودَ فوق جهنمَ حَقٌّ عند الغزالىِّ، وأما القولُ بأنه مِثْلُ الشَّعْرة فى الدقة فهو ظلمٌ فى وصفه، بل أدقُّ من الشَّعر، فهو كالخطِّ الهندسىِّ الفاصل بين الظلِّ والشمسِ والذى لا عَرْضَ له، وهو مِثْلُ "الصِّرَاط الْمُسْتَقِيمِ" الذى يَهْدِى اللهُ إليه المؤمنين والذى هو عبارةٌ عن الوَسَط الحقيقىِّ بين الأخلاق المتضادَّة، والذى يُعَبِّرُ عن الوسط الذى ليس من الإفراط ولا من التقصير، فهو على غاية البُعْدِ من كلِّ طرف، وما كان لِيُنْتَظر أولَ وهلةٍ أن تُلْقَى هنا نظريةُ الوسطِ الدقيقِ المشائيةُ المشهورة.

وليس للميزان الذى يَنْفَعُ لوزن الأعمال معنىً آخرُ، أىْ إن الميزان هو ما تَتَمَيَّزُ به الزيادةُ من النقصان. ويلاحِظ الغزالىُّ أن مثالَ الميزان فى العالم المحسوس مختلفٌ، فمنه الميزانُ المعروف، ومنه القَبَّانُ للأثقال، ومنه الاسْطُرْلاَبُ لحركات الفلك، ومنه المِسْطَرَة للمقادير والخطوط، ومنه العَرُوض لمقادير حركات الأصوات، فمِثْلُ هذه الدقة العلمية فى مِثْلِ هذا الموضوع أمرٌ مُسَلَّم.

ويَجِبُ التصديق باللذات المحسوسة الموجودة فى الجنات، من أكل وشربٍ ونكاح، لإمكانها، فى الحياة السعيدة لذات حسية وخيالية وعقلية، فإما الحسيةُ فبعد ردِّ الروح إلى البدن، وأما الكلامُ فى أن بعض هذا اللذات، التى ورد ذكرها فى القرآن، مما لا يُرْغَبُ فيه مِثْلَ اللبن والإستبرق والطَّلْح المنضود والسدر المَخْضُود ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ (الواقعة: ٢٧-٢٨)، فهذا مما خُوطِبَ به جماعةٌ يَعْظُمُ ذلك فى أعينهم ويشتهونه غايةَ الشهوة، وفى كلِّ صنفٍ وكلِّ إقليم مَطاعمُ ومَشاربُ

(١) المضنون الكبير، طبعة بمبي، ص ١٣٦ وما بعدها.

وملابسُ تختصُّ بقومٍ دون قوم، ولكلِّ واحدٍ فى الجنة ما يشتهيه، وسَتُكْمِلُ اللذاتُ الحسيةُ لَذَّاتِ الخيال، فلا يَخْطُر ببال الإنسان شىءٌ يَميلُ إليه إلا ويُوجَدُ فى الحال، أى يُوجَدُ بحيث يراه. وسيعيش السعيد فى -خيال دائم يُوجِّهُه كما يشاء، وستكون فى الجنة سُوقٌ تباع فيها الصُّور على رواية الغز ىِّ، وسَتَكُونُ اللذاتُ الحسية أمثلةً للذات العقلية، فكلُّ شىءٍ لذيذ لدى الحواسّ تقابله لذة عقلية من نوعٍ خاص، فيَرْجَعُ بعضُه إلى سُرُور العلم وكَشْف المعلومات، وبعضهُ إلى سرور المملكة ونفَاذ الأمر، وبعضهُ إلى مشاهدة مَجْدِ العادلين، غير أن رؤية الله سَتَكُون أعظمَ المَسَرَّات، وهناك تتمُّ لاهوتيةُ الغزالىِّ ضِمْنَ أملٍ نصرانىّ كامل[1].

(١) لا نرتضى هذا التعبير، فهى محاولة من المؤلف بأن الغزالى يميل إلى رأى النصارى فى موضوع البعث، ولكن هيهات!.